زيارة السادات لفرنسا لم تكن فعلياً أكثر من زيارة خاصة، أي غير رسمية.

وقد تبدو تفسيرات لهذا الافراط في تكريم السادات واحاطته بمظاهر الاهتمام الاوروبي (الفرنسي خاصة) من نوع القول بانه راجع الى الانحدار الشديد الذي أصاب علاقات فرنسا مع الجماهيرية الليبية (...)، الخصم اللدود للسادات، والى عدم رضا فرنسا - بالاحرى انزعاجها - من الدور الليبي في تشاد، ورغبتها في اعطاء دور للسادات في مواجهة وضد هذا الدور. نقول قد تبدو تفسيرات من هذا النوع، أو مما هو مثيل له... إلا أن الحقيقة تبقى أن فرنسا تلمس الآن، أكثر من أي وقت مضى، أن سياسة السادات، هي وحدها، التي تعفيها من كافة أشكال الحرج عند الاختيار بين العرب واسرائيل... بين الميل في سياستها الخارجية الشرق أوسطية الى إرضاء هذا الجانب أو ذاك.

مسالة انتخابية

من ثم يمكن القول ان الاهتمام الفرنسي المبالغ فيه بالسادات هو لارضاء اسرائيل أكثر منه لارضاء الطرف العربي، أوحتى المصري بالتحديد. فالمسالة ذات طابع انتخابي هذه المرة. فالديبلوماسية الفرنسية تعيش هذه الايام أجواء الاستعداد لانتخابات الرئاسة وتتأثر بتفاعلاتها وعواملها.. وفي مقدمتها العوامل «اليهودية»، وقد بدأت مبكرة، منذ عدة أشهر مع الحملة الضخمة التي صاحبت ما أسمي بعودة الحوادث المعادية للسامية. وفي خضم هذه الحملة، فهمت حكومة جيسكار ديستان بوضوح أن الناخبين «اليهود» غير راضين عن موقفها من كامب ديفيد، أي من اسرائيل. لهذا يمكن اعتبار الاهتمام بالسادات، أكثر المتمسكين بكامب ديفيد بين جميع الاطراف، إشارة موجهة إلى الناخبين اليهود عن «تغيير» في موقف الحكومة الفرنسية. ولعله من المفيد هنا التذكير بأن الرئيس الفرنسي استقبل شمعون بيرس، زعيم المعارضة الاسرائيلي، قبل عدة أسابيع، وهي دلفتة، رئاسية فرنسية في الاتجاه نفسه نحو الرجل الذي يعتبره الغرب، من الآن، رئيس وزراء اسرائيل المقبل. وعودة إلى مقال لوموند، المشار إليه آنفاً، نجدها تقول: «ان عدداً من الفرنسيين يأخذون على حكومتهم تحفظها حيال اتفاقية السلام المصرية - الاسرائيلية».

لكن هل يمكن الاكتفاء بالقول ان فرنسا (والبرلمان الاوروبي تحت نفوذها أكثر منه تحت أي نفوذ أوروبي آخر لاعتبارات موضوعية عديدة) قد «استخدمت» السادات كورقة انتخابية لحسب؟.

قبل الاجابة على هذا السؤال، لابد من أن نتلمس حقيقة ردود الفعل الاوروبية، الفرنسية خاصة، على رحلة السادات الاوروبية هذه وما قاله اثناءها. فإن ردود الفعل هذه تعكس بالضرورة مدى جدية أوروبا الغربية إزاء المسالة برمتها انعكاساً موضوعياً، أكثر مما تعكسه مظاهر الحفاوة والاستقبال.

والحقيقة أن ردود الفعل الاوروبية تبدو متباينة الى حد التناقض في تفسيرها لما قاله السادات في أوروبا الغربية. ولعلنا لا نملك هنا إلا الاعتماد على الصحف الاوروبية لرصد ردود الفعل هذه... ذلك أن السياسة الاوروبية تجاه الشرق الاوسط كما ترد على ألسنة الرسميين الاوروبيين لا تكاد تقول شيئاً. وهذا هو السبب في أن ذلك الشيء المسمى منذ أكثر من سنتين «المبادرة الاوروبية» تجاه الشرق الاوسط لايزال ضبابياً غير محدد المعالم، حتى أن البعض يعتقد، في أوروبا الغربية نفسها، بأنها تعبير لفظي عن شيء، لا وجود له في الحقيقة.

وعلى سبيل المثال، فإن صحيفة الغارديان البريطانية (١١/٢/١٩٨١) قالت إنه «لم يكن فيما قاله السادات أمام البرلمان الاوروبي ما يعني تأييد قيام أوروبا الغربية بنشاط ديبلوماسي. فطالما، في رأيه، لايزال هناك أمل في أن يعطي كامب ديفيد بعض النتائج». وقالت أيضاً: «إن هدف السادات الاعمق بدا أنه تأخير أية مبادرة سلام أوروبية الى ما بعد إعادة إطلاق عملية كامب ديفيد، حينما تتحرك ادارة الرئيس ريغان للعمل، وحينما تنتخب حكومة اسرائيلية جديدة».

أما صحيفة التايمز (١١/٢/١٩٨١) فقالت: «ان الرئيس السادات يعي جيداً أن الاميركيين هم العامل الحاسم في الشرق الاوسط لكنه يعي أيضاً أن عملية كامب ديفيد - التي استثمر فيها